ما بعد البنيوية والمعالم الثقافية العربية (*)

الدكتور عزي عبد الرحمـــن
نائب رئيس المجلس العلمي
بمعهد علوم الاعلام والاتصال،
جامعة الجزائر

■ تعتبر البنيوية أو البنيانية (structuralism) أحد المدارس الاجتماعية الحديثة التي تطرح نموذجا نظريا ومنهجيا متميزا في دراسة الظواهر الثقافية. وقد أحدث تقديمها جدلاً ضمن مختلف الاطر المرجعية الفكرية حتى أن «إديث» أطلق على شكل ونوع المناظرة الفكرية القائمة حاليا في الغرب بـ«عصر البنيوية». وقد تألقت المدرسة في الستينات والسبعينات، ثم تدحرجت في هذه الثمانينات بفعل عدة عوامل لايسع المجال لذكرها. وأيا كان فقد أحدثت البنيوية اثـرهـا في تاريخ الفكـر الغربي ولايبدو أنه يمكن استثناء تبياناتها في معالجة قيم ومؤسسـات اجتـماعية كالأسـطورة، والقـرابـة، والفن، والادب، والخـطاب، والتاريخ والنصوص عامة. وتستمد البنيوية معالمها وركائزها من أصل وتقاليد فلسفية واجتماعية عدة كالتحليل النفسي (فرويد) وماركسية (ماركس) والالسنية أو اللسانيات (سوسير). ولا يسعنا هنا الا ان نذكر ان اصول وصيغ وتراكيب وأنواع الدلالة الالسنية ليست قاصرة على الغـرب بل ان العـرب الاقـدمـين أمثـال ابي الـبركات بن الانباري، وأحمد بن فارس، والفـارابي، وطاشكبري، وابن جني، وابن خلدون كانت لهم الاصالة والسبق الزمني في تحديد الاسلوب العلمي المتميز في تناول علم اللغة بالمفهوم الاوسع (1) ولذلك حديث في مقام اخر. ويتضح ان الكتابات العربية (خاصة الاجتماعية) عن البنيوية نادرة رغم ان تأثير هذه المدرسة على بعض المنتجات الثقافية عندنا كالادب (في المغرب العربي) أصبح جليا حاضرا. مايرد عادة في المخطوطات العربية عن التحليل البنيوي لايتعدى ان يكون معادلة جزئية لبعض المكـونات النظرية للمدرسة. وتبرز مكانة هذه المدرسة عندنا من واقع ان

الكتابات الاجتماعية لاتمتلك الاساليب والمناهج الجريئة في دراسة او تحديث التراث العربي بمكوناته المتنوعة وأن محاولات البحث والتجديد عادة ما تقترن باجتهادات شخصية غير منتسبة لنموذج نظري متكامل نابع من واقع وتاريخ المجتمعات العربية ومتفاعل مع الحضارات الاخرى. لقد سعت هذه الدراسة الى تحديد الاسس والركائز التي تقوم عليها البنيوية في شكل افتراضات مستقاة (2) من الاعمال الاساسية لأب البنيوية : «لفي ستروس» وكذلك اعمال البنيويين المحدثين او «ما بعد البنيويين» : «لاكان»، «بارث»، «فكو»، و«التوسر». ثم قدمت مقترحات تأملية عن بعض الاستخدامات البنيوية في دراسة عدد من المؤسسات والظواهر الثقافية في المجتمع العربي وذلك اخذا بعين الاعتبار ان اي منظار فكري فلسفي لايستطيع ان يعين ويفسر كل الحقيقة وانما فقط جزءا من هذه الحقيقة الاجتماعية المعقدة المتعددة الابعاد.

تطرح البنيوية ميدانا نظريا ثريا يقوم على منطلقات فلسفية ومنهجية عدة كالماركسية والتحليل النفسي والفلسفة. وتمارس البنيوية، كحركة فكرية حديثة نسبيا، تأثيرا على عدد من فروع المعرفة المؤسسة اكاديميا كعلم الدلالة، والاثنولوجية، والنقد الادبي، والتحليل النفسي، وبدرجة اقل علم الاجتماع (3). وقد قدمت منذ النشأة أوصاف و صفات عن البنيوية : نمط من التفكير؛ تصنيف يحمل دلالة خاصة؛ نموذج نظري يتخذ الالسنية سندا؛ حركة فكرية؛ هوس فكري؛ شكلية (foramlism) ؛ نوع من الجماليات المتعالية عن الواقع، اطار شعر - اسطوري يجعل التحقيق الثقافي ممكنا؛ زي فرنسي؛ منظار يوحد ويجعل العلوم الاجتماعية والادب والفن تقوم على أصول علمية كمثل التي تؤسس وتجمع العلوم الطبيعية؛ اداة سياسية يسارية؛ وأيديولوجية. (4) ان الغموض الاولى الذي يصاحب محاولة الالمام بماهية البنيوية يقوم جزئيا على الالتباس الذي يتأتى مع أي اسلوب جديد من التنظير والبحث. ويقول «كوهن» في هذا السياق ان «الثورات في العلوم تميزت بتقلبات في النماذج، وحتى تستتب ركائز ومباديء النموذج الحديث، تبقى هناك منطقة سوء فهم بين من يدعو الى النموذج الجديد ومن يتمسك بالنموذج القديم». (5). ان الصعوبة في تعريف البنيوية دفعت «اوزيا» الى القول بأن «البنيوية هي لفى ستروس» وجعلت «بنواست» يقترح ان «البنيوية تماثل نظرة «سارتر الخاصة بالشعور (consciousness) : «هو ما ليس، وهو ليس ما هو». (6)

---

* هذا الموضوع ملخص من دراسة شبه مطولة ا نجزها هذا الكاتب عن : «ما بعد البنيوية : الافتراضات العشر والتنظير الاجتماعي والتراكمات التراثية العربية».

(1) د. صبحي صالح «اصولاالالسنية عند النحاة العرب» الفكر العربي، العدد 8/9 (بيروت، يناير / مارس 1979). ص. 59/66.

(2) AZZI Abderrahmane, Structuralism and Sociological Theory, unpublished dissertation, N.T.S.U, Denton, Texas, 1985.

(3) Goddard, Davis, «On structurlism and Sociology» The American Sociologist, XI (may, 1976), PP. 123/133.

(4) See: De George, Richard T. and Fernande M., The structuralism From Marx to Levis-Strauss, New York, Doubleday - company, In., 1972, PXI

Descombes, Vincent, Modern French Pholosophy, New-York, Cambridge University Press, 1980,P. 40. Wilden, Anthony, «Structuralism, Commincation» Semiotica VI. (Autumn, 1972), P. 244. (5) Ihde, Don, Experimental Phenomenology, New-Yok, G.P. Putnam's sons, 1977, P.18

ان حصر ما تمثله وتعنيه البنيوية لايمكن ان يتجاوز مآخذ التشويه والتبسيط. فالبنيوية تتضمن ملكيات متميزة عديدة وكثير من البنيويين المعاصرين لايقرون بأي نوع من التضامن العقائدي او الالتزام تجاه مايسمى بالبنيوية. وقد قدمت رغم ذلك تعاريف تمثل التقديمات المتنوعة عن البنيوية. ونورد في هذا الاطار عينة من هذه التعاريف الموزعة والمشتتة في العديد من المصادر.

— المنهج الذي يمكن الباحث من ان يذهب ابعد من الوصف الخام للتصور او التجربة ويتم ذلك ضمن وفي اطار النوعية والعقلانية التي تجسد الظواهر الاجتماعية المدروسة (7).

— اسم منهج علمي (8)

— شكل من الامبريقية (empricism) (9)

— نموذج وضعي جديد (neo-positivism) (10)

— محاولة متسقة تسعى الى اكتشاف بنيات فكرية او عقلية عالمية عميقة. وتتجلى هذه في القرابة (Kinship) والبنية الاجتماعية على النطاق الاوسع، والادب، والفلسفة، والرياضيات، والانماط النفسية اللاشعورية التي تحفز السلوك الانساني (11).

— منظار يفترض أنه اذا اعتبرت الانظمة الثقافية لغات وحللت باتساق بواسطة مناهج مستعارة من الالسنية، فإن المعاني والدلالات الخفية لهذه الانظمة يمكن ان تصبح جلية وواضحة (12).

— ميدان بحث يقوم على قواعد الكليانية (totality) والضبط الذاتي (self regulation) وعملية التحول (transformation) المتداوَلة في الاثنولوجية والالسنية وكذا في الرياضيات والعلوم الطبيعية والبيولوجية والتحليل النفسي والفلسفة. (13).

— نمط جريء يتبنى عملية تحليل البنية الداخلية للكليات الاجتماعية (14).

— نظرية نقد في اسمى معانيها وهي لاترتكز فقط على علاقة الناقد بالموضوع بل تعمل على تحطيم الفجوة القائمة بين النقد والموضوع (15).

— قطيعة ابستمولوجية. (16).

— حركة عقلانية (17).

— حالة من هذا التعدد النظري الصحي الذي يفرز أسئلة جديدة تتطلب نوعا اخر من التحقيق الثقافي. (18)

لقد سيطر الجدل البنيوي على الواجهة الفكرية الفرنسية اساسا لمدة زمنية معتبرة: «الخمسينات والستينات والسبعينات»(19). لكن لفظ «بنية» اقدم من ذلك بكثير. فكلمة «بنية» مشتقة من اللفظ اللاتيني (Structura) من الفعل (struere) أي ان يبنى الشيء. وقد ظلت مكونات «البنية» منحصرة على الاطر المعمارية الى حين وتعدى استخدام اللفظ الى البيولوجية في القرن 17 (20). ودخل مفردات اللغة والادب والفلسفة في القرن 19. (21) وقد انتقل لفظ «بنية» من البيولوجية الى علم الاجتماع بواسطة «سبانسر» في اواخر

(6) Benoit, Jean-Marie, The Structural Revolution, New-York, St.Martin's Press, 1978, p.1 (7) Detweiler, Robert, Sign, and Self: Phenonmelogy and Structuralism as Literary Critical Methods, Philadelphia, Penns, Fortress Press, 1978, P. 17 (8) Descombes, P. 77 (9) Funt, David Paul, «The Structuralist Debate», The Hudson Review, XVII (Winter, 1969), P. 623 (10) Benoit, Jean-Marie, «structuralism», Cambridge Review, XCIII (Otobre, 1971) P. 10 Levis-Strauss to Foucault, New-York, Columbia University Press, 1980 P.1

(11) Kurzweil, Edith, The Age of Structuralism: «American Quarterly, XXX (bibliography Issue, 1978), P.283.

(12) David, Pace, «Structuralism in History and the Social Sciences,»

القرن 19 واستخدام اللفظ في اطار خاص من طرف علماء الاجتماع الاوائل امثال «قيبر»، «ماركس» «دوركايم»، و«بارتو» لتعيين الخصائص الاجتماعية للحياة الانسانية (22).

ويبدو ان مفهوم «البنية» مثل منذ اوخر القرن 19 احدى المفاهيم الملازمة في الدراسات الاجتماعية. ان البنية «تتواجد ضمنيا في تحليل العلاقات والمؤسسات الاجتماعية. ان البنية تتواجد ضمنيا في تحليل العلاقات الاجتماعية وان اية رؤية للاحداث الاجتماعية كعوامل متعاقبة ومترابطة هي بنيوية (23)». بيد ان المقولة التي يردها العديد من علماء الاجتماع والتي مفادها ان هذا المجتمع أو ذاك له هذه البنية او تلك تثير في الواقع الكثير من التساؤلات والاعتراضات ولاتقدم معالجة في وزن القضية المطروحة (24).

ان البينوية منظار متعدد الابعاد ويتضمن عددا من الرواد المستقلين الذين يختلفون في اللهجة والمحتوى، الا ان اب البنيوية الذي لامنازع له هو «لفي ستروس». وترتبط البنيوية الحديثة او ما بعد البنيوية (post structuralism) بجيل من العناصر الاساسية : «بارث»، «لاكان»، «التوسر»و «فوكو» (26).

وقد ارتأينا في هذه الدراسة تقديم المباديء والركائز التي تقوم عليها البنيوية (وسمينا هذه بالافتراضات العشر) (*) مساهمة في تقديم عدد من اطروحات هذه المدرسة الى العربية وعسى ان يكون ذلك لبنة مساعدة في تسليط الضوء على المظاهر الثقافية العربية وفي احداث التفاعل الحضارى فكريا وفلسفيا على الاقل.

الافتـــــراض - 1 (*)
ان الظواهر الثقافية انظمة لغوية اذ يعبر عنها باللغة وهي موجهة بالمباديء التي توجه اللغة

● ان أنظمة التمثيل او التشخيص مثل القرابة والاسطورة والخطاب والفن والادب أنظمة لغوية. هذه الانظمة تعرف لانه يعبر عنها لغويا، أي بواسطة مؤسسة اللغة. ان أولوية اللغة ظاهرة تنحدر من واقع ان اللغة اكتسبت مكانة متميزة والحقيقة أخذت صبغة الشكل اللغوي. ويستتبع ذلك ان الافكار تتاتى اصلا من الكلمات. وترى البنيوية ان الظواهر الثقافية لابد ان تحلل باتساق بواسطة تقنيات ومناهج مشتقاة ومشتقة من الالسنية كالتركيب النحوي (Syntax) والصوت الفظي (Phoneme) ووحدة الاصوات اللفظية (morphome) والتضاد الثنائي (binary opposition) والاستعارة (metaphor) وقاعدة الارتباط الاصطلاحي (interpendence rule of formal)، الخ. (انظر «لفي ستروس» عن الاسطورة والقرابة).

(*) منقول باختصار من AZZI. (Ibid)

(22) Glucksmann, P. 1 (23) Glucksmann, Miriam, «Structuralism, », British Journal of Sociology XXII, (june, 1971), P.209 (24) Lane, Michael, Introduction to Structuralism, New-York, Basic Books, Inc. 1970, P. 21 (25) DE George, P. XI.

(*) مستخلصة من الاعمال الاساسية لكل من «لفي ستروس»، «لاكان»، «بارث»، «فوكو»، و«التوسر».

الافتـــــراض 2

ان الظواهر الثقافية، مثل اللغة، أنظمة من الدلائل؛ فكل ظاهرة ثقافية تحتوي الدال (المفهوم) والمدلول (محتوى الدلالة)

ان الرمز اللساني لايوحـد الاسم والشيء ولكن الدال (الفهوم (والمدلول) الصورة الصوتية التي تعكس بصمات نفسية وتحدث ايقاعا على الحواس). هذا التقديم يمكن من معالجة جوانب الثقافة الانسانية كأنظمة من الدلائل. ويرتبط الدال بالمدلول ارتباطا مبنيا بحيث ان تسليط الضوء على ما يحمله الاول يؤدي الى استظهار ما يكنه الاخر. وقد علمت الثقـافـة المعاصرة (في الغرب) على خنق وكتم العلاقة القائمة بين الدال والمدلول. هذه الثقافة تختزل وتختصر الثقافة الى اللاشيئية (nothingness) . ان جانب اللاشيئية في الثقافة المعـاصرة على كل ليس عرضيا فالتـوجه العام يقوم على منع الافراد من التقييم النقدي والمشـاركة في انتاج ثقافتهم، ودور الكاتب الناقد في هذه الحالة هو استنطاق واستخراج المعاني الكامنة في الظواهر الثقافية لان الظواهر لاتعكس الحقيقة فحسب بل تدل عليها ايضا. (انظر «بارث» عن الثقافة في المجتمع المعاصر).

الافتـراض 3

تمثل الظواهر الثقافية بنيات؛ تتميز البنية بالكليانية، والتحول الديناميكي، والضبط الذاتي

ان المكونات الثقافية مظاهر عن بنيات. ويتبنى التحليل البنيوي المثلث الاساسي الذي طوره «بياجي» والخاص بميزات ومميزات البنية : الكليانية والتحول الديناميكي، والضبط الـذاتي. الكليانية : اذ ترتبط اجزاء وجـزئيات البنية ببعضها البعض، وتتحكم وحدة العناصر في الاقسام المكونة للوحدة. التحول الديناميكي : فبنية الظواهر الثقافية ليست قارة او دائمة، اذ تقوم العلاقة بين العناصر والبنية على مبدأ التأثير المتبادل. ان البنية تقوم بعملية البنية (Structuring) وهي في نفس الوقت مبنية (structured). والضبط الذاتي : ان دلالة البنية لاينبغي ان تقترن خطأ بما يمكن ملاحظته مباشرة لان هذا الملاحظ يمثل مظهر بنية عميقة تظل لاشعورية.

الافتـــــراض 4
ان البنيات التي تجسد الظواهر الثقافية لاشعورية، لكنه يمكن التوصل الى هذه البنيات بوسيط اللغة

ان بنية الظواهر الثقافية لاتمكن في المحتوى الظاهرى اذ ان ذلك لايتعدى ان يكون شروحـا اضافية، بل في مستوى اللاشعور الذي يحكم ويتحكم في البنية. وقد اضحى اللاشعور ظاهرة متميزة في الثقافة الحديثة. ويتضح ان مستوى الشعور لخطاب ما يمكن ان يخفي او يلبس اقنعة بفعل التقييد والقهر. ان النظرة السائدة من ان اللاشعور هو مقعدا فقط للغرائز لابد ان يعاد التفكير فيها. ان اللاشعور يعين رغبات انسانية ترتبط بالعلاقات التي اكتسبت صحيتها في عالم النظام الرمزي. وهذه العلاقات محكومة بدوافع تتأتى من التعامل مع الاخرين (لاكان). ان مفهوم اللاشعور اداة ضرورية في دراسة الظواهر الثقافية المعاصرة ذلك ان هذه كثيرا ما تخفى الرباط الحاصل بين الظروف المادية للحياة والافكار والمؤسسات السائدة في المجتمع (بارث). ويتبين ايضا ان الاستمرارية التاريخية الظاهرة في تطور المعرفة تغفل التحولات والقطيعات التي تتحرك على مستويات لاشعورية (راجع فوكو عن القطعية الابستمولوجية). ان النصوص التاريخية الاساسية تحمل في طياتها ابستمولوجية متميزة غالبا ما لا تكون في متناول اصحابها شعوريا (انظر «التوسر» عن النص الماركسي). ان اللاشعور يبرز بواسطة اللغة ويدخل في اطار ذلك استعارة المباديء والادوات الالسنية قصـد دراسة العلاقات التركيبية بين اجراء الظواهر الثقافية، واللاشعور مبني مثل اللغة (انظر «لاكان» عن الخطاب العيادي).

الافتـــــراض 5
يؤكد التحليل البنيوي الجانب الانى (أو التزامنى) أكثر من الجانب التطوري (أو التعاقبي) للظواهر الثقافية

لمح «سوسير» الانية والتطورية وألح على أن اللغة ليست موضوع التحليل المقارن عبر الزمن (تطوري) بل كل ذو تكامل واحتواء ذاتي ولابد أن تدرس كمؤسسة في حد ذاتها. وترتاب البنيوية من التصورات القائمة حول «التفكير البدائي» والتي ترى أن هذه الأنظمة من التفكير تعود الى المراحل الجد أولية من تطور المعرفة. إن هذه النظرة، في منظار البنيوية، تصور خاطيء يقوم على أساس مشروع تطوري يفترض أن مجتمعا ما (المجتمع الغربي) يمثل التعبير الاكثر تقدما وتطورا والأخرى بقايا المراحل السابقة. ان «البدائي» يميل إلى تأسيس أنظمة إدراكية على درجة كبيرة من التجريد كالاسطورة والدين. هذه الأنظمة متكاملة ذاتيا ولا تمتثل لصيرورة التطور. ويظهر أن عقلية «البدائي والمتحضر» لا تختلف في النوع ولكن في طبيعة الظواهر التي تتعامل معها. إن التحليل البنيوي يعيد النظر في مسألة الزمن أو الوقت. فالتاريخ يسجل التحولات عبر الزمن وينظم حقائقه من حيث علاقاتها بتعابير على مستوى الشعور، أما البنيوية فتعالج علاقات هذه الحقائق بالظروف اللاشعورية للظواهـر الثقـافية (أنـظر ألتـوسر عن الارتباط والاستقلال النسبي القائم بين الاقتصاد والسياسة والعلم والقانون).

الافتـــــراض 6
إن مختلف التحولات التاريخية تعكس القطيعة أو الانقطاع أو الانفصام أو اللااستمرارية ولا تمثل نماذج متماثلة متطابقة

إن تطور المعرفة يتميز بالقطيعات (breaks) اللااستمراريات (discontinuities) فكل مرحلة تاريخية تتضمن هوسا أو هجسا مركزيا (episteme): شكل من الوجود يقود المعرفة خلال حقبة تاريخية معينة. ويتضح أن القطيعة الأساسية في تطور المعرفة (في الغرب) حدثت في القرن 17 عندما تعاظمت مكانة العلم وأصبح الانسان موضع أو موضوع الدراسة والمعرفة (راجع «فوكو» عن الجنون والاجرام وظهور الملاجيء والطب العقلي). وتتبين اللااستمرارية التاريخية في النصوص التاريخية الأساسية أيضا (أنظر تحليل «ألتوسر» الخاص بالنص الماركسي).

الافتـــــراض 7
إن مسألة التحليل البنيوي ليست الانسان مالك المعاني ولكن بنية المظاهر الثقافية التي هي (أي الانسان) صانعها

ان النموذج البنيوي لا يعطي الانسان مكانة خاصة في العالم الاجتماعي إذ أن الانسان ليس بالشيء ولكنه نشاط تحكمه بنيات. ويقترح هذا النموذج التحول من الفحص الذاتي الكثير والنظرة البطولية التي تعتبر الانسان خالق تاريخه ومؤسساته الى القوانين التي تحكم تفكيره وسلوكه. ان الانسان، كإنسان، لا يستحوذ على المعاني. إن المعاني تتواجد بدلا في نشاط الانسان وهي (أي المعاني) لا تدرك الا من حيث العلاقة مع البنيات (لفي ستروس) أو العالم الرمزي (لاكان) أو السلطة (بارث) أو نمط الانتاج (ألتوسر) أو الهجس المركزي (فوكو).

الافتـــــراض 8

ان الظواهر الثقافية ترتبط عن قرب بالسلطة لكن السلطة في أوقات تؤسس بنيتها (structuring) **وتكـون مبنيـة** (structured) بسبب التعقد والتأثير المتبادل الذي يتواجد بين وضمن المحاور المختلفة للنظام الاجتماعي

ان العلاقة بين الظواهر الثقافية والسلطة عاملا لا يمكن استثناؤه في البحث البنيوي. فسيرورات الانضباط، والعقاب، والادب، والخطاب، والأيديولوجية تتواجد ضمن نطاق ممارسة السلطة. هذه العلاقة كثيرا ما تكون ملفقة ملتبسة عندما تتقلص اللغة اللارسمية (اللغة التي تقف في الجانب الاخر من لغة السلطة) الى السكوت وتصبح التعابير الثقافية دالات بدون مدلول. ان اللغة وثيقة الارتباط بالسلطة، فالخطاب ليس فقط تلفظا (verbalisation) يجسد الصراع بل هو الجوهر الأساسي لصراع الانسان (فوكو).

لقد أعطى الصراع تجاه السيطرة على اللغة أبعادا جديدة للمراقبة الاجتماعية حيث أصبحت هذه الاخيرة تمارس بواسطة الوسيلة الأكثر فعالية والأكثر اتساعا وانتشارا: اللغة. ان الخطاب الانساني أضحى هدف رغبات الانسان (لاكان). وترتبط الاداب فنا، رواية رياضة، أو مسرحا بمطامح ومصالح الطبقة الاجتماعية. ويعكس الأدب المعاصر (في الغرب) رغم تعددية نصوصه، ما يسميه «بارث» بالظروف البورجوازية اذ يحتفظ بالميزة الاساسية للنص الكلاسيكي: الا ستعمالية (instrumentality). وتطرح السلطة كإشكالية خاصة في النص الماركسي حيث تقترن السياسة والاقتصاد والعلم بالبنية التحتية التي تمثل قاعدة السلطة (ألتوسر).

الافتـــــراض 9

إن المعايير المتحكمة في دراسة المظاهر الثقافية عالمية في طابعها

إن تعابير الظواهر الثقافية تتنوع عبر الثقافات، ولكن البنيات التي تتحكم في هذه التعابير متماثلة. وقد قدمت البنيوية تمييزا معتبرا بين النسبية والعالمية؛ فالنسبي الناتج عن تنوع العادات والتقاليد ثقافي، أما العالمي فطبيعي (راجع «لفي ستروس» عن تحريم النسب، «لاكان» عن بنية اللاشعور، «بارث» عن اقتران الثقافة بالسلطة، «وألتوسر» عن محاور الحياة الاجتماعية).

الافتـــــراض 10

ينبني البحث البنيوي على ملاحظات إمبريقية، لكن الملاحظ ماهو إلا جسر ضروري نحو اكتشاف البنيات اللاشعورية للمظاهر الثقافية

ان دراسة الظواهر الثقافية تقوم على الحقائق الملاحظة مثل الأجزاء والجزئيات المكونة للأساطير والروايات، والعروض المسرحية، والنصوص الأخرى، غير أن معانية هذه الحقائق ليست غاية في حدذاتها بل خطوة لابد منها نحو اظهار واستظهار البنيات اللاشعورية المتواجدة في المستويات السطحية والبحث عن مالا يقال فيما يقال.

لقد أحدثت البنيوية رغم فترات المد والجزر اثرا بالغا وذلك بدرجات متفاوتة على الأنماط الفكرية المتباينة في الغرب. ويظهر من جانب اخر أن الادبيات الاجتماعية عندنا لم تتعامل أو تعالج ناهيك عن أن تتفاعل مع الملكيات البنيوية كنمط نظري متميز قائم في حد ذاته. وإن وردت بعض المحاولات خاصة أثناء أواخر السبعينات فقد بقيت هذه الأخيرة جزئية ولم تتعد إطار تقديم وتقويم قيم وأطروحات عدد من البنيويين المحدثين كأفراد (26). ويظل التساؤل العتيق قائما عن ما هي إمكانية وما مدى مساهمة الأساليب والأدوات البنيوية في

دراسة بعض الظواهر الثقافية في المجتمع العربي. هذا التساؤل يأخذ لونا خاصا إذا أدركنا أن بعض اللبنات والقواعد التي تقوم عليها البنيوية كالبينات والتبيانات الألسنية كما سبق وأن أشرنا ليست قاصرة على الغرب بل إن اللغويين العرب كانوا سابقين وسباقين في طرح وإثارة مسألة التراكيب والدلائل اللغوية (27). وما يعطي هذا التساؤل بعدا اخر ما تقدمه وما تدعيه المدرسة البنيوية من أن بعض أطروحاتها لا تتقيد بالحواجز الثقافية المكانية بل تتسم في طابعها بالعالمية. فمامدى مصداقية هذه الدعوة عندما يتعلق الامر بدراسة واقع مثل واقع المجتمعات العربية تزامنيا أو تعاقبيا. لقد صاحبت وتصادمت الأمة العربية مع الفكر الاجتماعي الغربي منذ أواخر القرن 19 على أقل تقدير وبلغ هذا الاحتكاك أشده ابتداء من العشرينات وتجسد ذلك في التخاطب والتعارض مع النظرية الماركسية وكذا وبحدة أقل مع النظرية الليبرالية (كمثل الوظيفية في علم الاجتماع). هذا التعامل ينبغي أن يتواصل ذلك أن الفكر الاجتماعي الغربي تجاوز الى حد تقديمات المدارس الكلاسكية كالوظيفية وماركسية ماركس ونمت نماذج فكرية أخرى (كمدرسة التفاعلات الرمزية والبنيوية) تطرح مسائل وإشكاليات من نوع اخر. ويبدو على كل أن هناك ضرورة تستدعي سرد أثر الاحتكاك الحضاري في اثراء وانماء حضارتنا ذلك ان الغرب سبقنا في ذلك عندما استوظف ما أنتجته الحضارة العربية الاسلامية في خدمة مرحلته النهضوية.

يمكن اذا وفي سياق التحدث ومحادثة البنيوية استعراض بعض الاستخدمات البنيوية التي قد تكون أداة هادفة وسندا في تحليل الظواهر التراثية والثقافية في المجتمع العربي الاوسع. وينبغي التنويه ولا غنى عن ذلك من أن استقدام واستضافة الأدوات والمفاهيم الغربية يستلزم المراجعة النقدية ذلك أن العديد من هذه التقدميات، وإن اتصفت بالعلمية والعالمية، عادة ما تتلون بالاطر الاجتماعية للمعرفة. يضاف الى ذلك أن استعمال وتوظيف النماذج والمناهج الغربية ينبغي أن يتم بصفة جزئية اذ ان المرجع النظري المتكامل في معاينة أشكال الثقافة العربية لابد أن يستمد من واقع وتاريخ المجتمعات العربية.

إنه بالامكان عمليا الاستناد الى الصيغ التقنية والاسلوبية البنيوية في معالجة المجالات الثقافية العربية التي نقترحها فيما يأتي :

1. وسائل الاتصال الجمعي:

أصبحت وسائل الاتصال الجمعي (mass communication) أو وسائط الاتصال الجمعي أو الجماهيرية (mass-media) الأداة المرجعية التي توفر أكثر البضائع والاحزمة الخاصة بالاستهلاك الثقافي في المجتمع العربي وأضحت الاجهزة السمعية البصرية كالتلفزيون سلعا لا طبقية الى حد (أي في متناول المستضعف وذوي الجاه). وقد تقلصت وتضاءلت بفعل ذلك مكانة بعض المؤسسات الاجتماعية التاريخية التي كانت تقوم بعملية التنشئة الثقافية والتثقيف والمثاقفة كالعائلة والمدرسة و«تجماعت» (*) الخ. ويتضح أن تقوم دراسات وسائل الاتصال الجمعي بمكوناتها التي لخصها واستخلصها لاسويل : من (المراسل)

قال ماذا (محتوى الرسالة) لمن (الجمهور) وبأي تأثير (علاقة الرسالة بالجمهور) ضئيلة أو نادرة في الكتابات الاعلامية العربية، وحتى مناهج وأدوات الدراسات الاعلامية العربية لا تتعدى في الكثير من الأحيان أن تكون تقليدا سرديا وصفيا للنمط الذي نشأ في الغرب خاصة في أمريكا والمتمثل في تحليل المضمون كميا (content analysis) أو دراسة الجمهور a-udience research) (28).

إن دراسة وسائل الاتصال الجمعي بنيويا تكتسي أهمية تاريخية خاصة، ذلك أن هذه الوسائل أصبحت وبشكل يثير الزجر والانزعاج، منفذا للدلائل الغربية. وتحمل هذه الدلائل، ولا ضرورة للتذكير، تضاريس وقوالب رأسمالية اجتماعيا وغربية حضاريا. وقد أنذرت وأثارت الكتابات الاعلامية في الغرب نفسه الاثر والتأثير الذي تحدثه هذه القنوات الاتصالية على مؤسسات وكيان المجتمع الغربي. هذا الاثر يتجلى في:

أ. خلق ثقافة جماهيرية (mass culture) تعزز الامتثالية والنمطية وتدفع جانبا التنوع والتغاير وأشكال الابداع والابتكار. وتفرز هذه الثقافة فردا سلبيا وسليبا لا يشارك في إخراج ما يستهلكه ثقافيا الا بالقدر اليسير.

ب. تعزيز النمط الاستهلاكي المادي في الحياة الاجتماعية، وبتعبير اخر، ايجاد مجتمع استهلاكي يحافظ ويساعد على ترويج البضاعة التجارية الرأسمالية.

ج. تسويق ثقافة رديئة تساهم في النيل من المستوى الثقافي وفي تدهور الذوق الفني والجمالي في المجتمع، الخ (29).

إن التساؤل الذي يفرض نفسه في هذه الحالة هو أنه اذا كان الحال كذلك بالنسبة للمجتمع الغربي فماهو أثر تواجد مثل هذه الدلائل في المحيط الاجتماعي عندنا؟ ان عواقب بث أو إذاعة أو نشر هذه المنتجات الحضارية سواء في شكل رموز لغوية أو غير لغوية قد تكون أدهى وأمر خاصة وأن بنيات ومؤسسات المجتمع العربي مازالت مشروعا حضاريا لم يكتمل بعد. وقد أصبح الفرد العربي، على غرار ماهو سائد في مجتمعات أخرى، يكرس قسطا وافرا من الزمن في مشاهدة هذه الشاشة المصورة وأضحى هذا الصندوق العجيب يأخذ الاسبقية على العادات والعوائد العائلية التي ظلت عبر التاريخ تؤدي مهام التربية والتثقيف ونقل الثقافة عبر

(26) أنظر مثل على حرب، نحو «فهم تكاملي للانسان»، دراسات عربية، العدد 11ـ12 (بيروت، أيلول ـ تشرين الأول، 1983، ص 40ـ64).

(27) انظر العدد الخاص عن «الالسنية أحدث العلوم الانسانية»، الفكر العربي، العدد 8ـ9 (بيروت يناير-مارس، 1979).

(*) كلمة «تجماعث» (ربما من أصل «تجمع» مصغرة) ترمز الى تلك الجلسات التي تقام يوميا في أحد أركان القرية خاصة في المناطق الجبلية بالمغرب العربي للحديث والتحادث عن متاعب ومعاتب أهل القرية.

(28) د. عزي عبد الرحمن، «مسألية البحث عن منهجية بحث: اعادة النظر في نمط لا سويل» دراسة قيد النشر، المجلة الجزائرية للاتصال، (الجزائر).

(29) د. عزي عبد الرحمن، «التدفق الاخباري: الاطر المرجعية الثقافية والتجذر التارخي» مجلة: حوليات جامعة الجزئر، العدد 1 (الجزائر، ربيع 1987).

الاجيال. ماطبيعة ونوعية المحتوى الذي تقدمه هذه الوسائل، ما هي القيم والمفاهيم (الظاهر منها والباطن) التي تحملها هذه الرسائل الاعلامية، ما هو التأثير الذي تحدثه على المشاهد (الجمهور) العربي، وما أثر ذلك على الاسس والمكونات التراثية الثقافية العربية؟ ان المجال الذي تفسحه هذه التساؤلات رحب وواسع حقا. ويتبين ان التحليل البنيوي يمثل سندا في معالجة هذه الظواهر منهجيا ونقديا (انظر نقد «بارث» الخاص بمحتويات بعض وسائل الاعلام الغربية).

2 ـ الاسطورة العربيـــة القديمة (أو الفكر المتوحش) :

تمثـل الاسطورة (myth)، كنظام من التفكير، ثورة لغوية ثقافية لايستهان بها، بل ان الاسطورة مستودع من الدلائل اللامرئية التي لاتنبثق ظاهريا في النص. وتتضمن الاسطورة بمفهوم ضيق الروايات والحكايات التي ترد الينا عن طريق المشافهة والمحاكاة، وتشمل هذه الاخيرة وبمفهوم اوسع الانظمة التجريدية والاخرى كا ليمتافيزيقيا، والديانة، والعلم، الخ. أو ما سماه «لفى ستروس» بالفكر المتوحش (pensée sauvage) عند المجتمعات البدائية (*). وقد بينت الاثنولوجية البنيوية، في هذا الشأن، ان اساطير الاولين تحمل درجة عالية من التنظير والمناظرة، وهي انظمة قائمة في حد ذاتها ولاتنتسب لأي نموذج من التطور. وتـذهب هذه النـظرة الى القول بأن الاسطورة القديمة لاتختلف في بنيتها عن الاسطورة الحديثة، وإنما التخالف والاختلاف التي قد يتواجد يعود الى الظواهر والمظاهر التي تصادفها الاسـطورة. ان المجتمع العربي غني بالاساطير (القديمة منها والحديثة) ولايبدو ان هذه الاخـيرة وضعت موضـع اشكـالية لعـوامل ودوافع عدة ومن بينها النظرة السائدة من ان الاسطورة اسطورة قبل ان تكون شيئا اخر ثم ان المجتمع العربي في المرحلة الانتقالية الراهنة يحاول اكثر التطلع الى المستقبل من التنقيب فيما يعتقد أنه أدبر وولى عليه الزمن. ان مراجعة ومعالجة الاسطورة العربية القديمة (والكثير منها معرض للنسيان ان لم تكن هناك محاولات توثيقيةتدوينية) وباستضافة عدد من ملكيات البنيوية يدخل في هذا التوجه الخاص بتحديث وتجديد التراث العربي قديمه وحديثه. وفي الحديث بقية.

3 ـ الاداب والفنـــــون :

لقد ارتبط العرب، وربما اكثر من غيرهم، بالأسلوب الادبي اداة تعبيرية عما يكن في خلجـات النفس، وفي التغني والتباهي بالحب والجمال، وفي محادثة العيش والغناء، وفي التأمل التمعن في ملكوت الأرض والسماوات، وفي المدح والذم والهجاء والثراء؛ حتى أن اللغـة العـربية تستمد الكثير من رصائدها اللفظية والدلالية من الادب بمختلف الوانه وتلوناته. ويشتمل محور الاداب والفنون على اشكال عدة كالقصة والرواية والنثر والشعر والالغاز والغناء والطرب والالعاب والنكت والمسرح والمواويل، الخ. ويبدو ان هناك اهتماما معتبرا بالمنهج البنيوي لدى بعض الاوساط الادبية خاصة في المغرب العربي (عقدت مؤخرا ندوة خاصة بهذا الموضوع بالجزائر العاصمة 1986). ان مجال التعابير الادبية عادة ما تستقطب ما لايمكن طرحه (لسبب ما) بشكل لغوي مباشر اخر.

ونجد على سبيل التحدث عن مجتمع مغاير ان قصة ساحر الفردوس (the Wizard of Oz) للكـاتب «بـوم» كانت محل دراسات اجتماعية عدة ابرزت البنيات الطبقية والمثل الثقافية التاريخية التي كانت سائدة في امريكا في بداية هذا القرن (29). ويتضح ان دراسة الاداب والادبيات العربية بنيويا يساهم في اظهار واضاءة المعالم الحضارية المتميزة وذات الطبيعة العالمية الكامنة في هذا الميدان المعر في الواسع والاوسع.

4 ـ التـاريخ الفكـري العربي.

يطرح هذا الميدان مسـائـل وتساؤلات قاسية شائكة ولايسعنا في هذا المجال الا اثارة مسألة تاريخ الفكر عندنا. لقد سطر الفكر في الغرب على نمط المراحل المتعارف عليها : مرحلة الاغريق، عصر الرومان، القروسطى (تلخيص القرون الوسطى)، مرحلة النهضة، عصر التنوير، والعالم الحديث. وكان من المركزية الاوروبية (والاورو ـ مركزية) ان اقحمت احـداث وحوادث حضـارات اخرى كالحضارة العربية الاسلامية في سياق هذا الهيكل التاريخي التطورى الغربي بصفة اختزالية تهميشية. وقد سعى بعض البنيويين المحدثين الى اعادة ترتيب هذا النموذج التطوري الظاهري وطرحت كتابات فوكو مراحل (ما قبل القرن 17 ومـا بعـد القـرن 17) تقـوم على تحول وتغـير الهـوس الفكـري المـركـزي والقطعية الابستمـولـوجية في التاريخ. هذه الاخيرة ظلت على (37) كل تدور وتحوم حول الاطر المـرجعية الغـربية نفسهـا. ويبقى السؤال قائما عن المراحل التطورية او الانفصامية التي عايشهـا وواكبهـا الفكـري العـربي قديما وحديثا. هل اقترن هذا الفكر (آنيا) او استبق (ماضيا) او تأثر (لاحقا) بالاحداث التاريخية المرحلية (فترة ظهور الاسلام، الفترة الاموية، الفـترة العباسية، فترة الانحطاط، وفترة الانبعاث)؟ هل ان العصر الجاهلي كان جاهليا حقا؟ كيف وما مدى مساهمة الفكر الدخيل (كالفلسفة اليونانية) والفكر المتداخل (المتواجد في الاقطار المتباينة) في اثراء او زحزحة الفكر العربي بكل مقوماته؟ هذه التساولات مطروحة للدراسة والبحث.

5 ـ خطاب المتسضعفين والمغضوب عليهم :

شهد المجتمع العربي عبر التاريخ تناقضات داخلية بين شيع ومذاهب وفرق متنافرة عدة وقد تكون النظرة القائلة بأن الاسلاف كانوا اكثر تماسكا واستقرارا من اللاحقين حاضرا «اسطورة» اكثر منها شهادة واقعية للحدث التاريخي. وقد تواجدت في هذا المجتمع شرائح اجتماعية من البؤساء والفقراء وابناء السبيل والنساء والشيوخ والاطفال والمساجين والمجانيين والمعذبين في الارض عامة لم تتمكن، بفعل عامل السلطة، من ان تسمع او تدون صوتها الا في حالات. وقـد لايوجد هناك اثر لخطاب هذه الفئات في الادبيات الرسمية (وهذه فرضية) انما يمكن استنباط مؤشرات الكلام الاخر فيما يتواجد هامشيا او بين قوسين او في الفكـر المتوحش عامة، هذا الميدان يفتح افاقا اوبعادا شاسعة للبحث في التراث الثقافي الفكري العربي.

6 ـ السلطة والثقافة والمجتمع :

إن متغير السلطة سواء اكانت سياسية او اقتصادية او روحية عادة ما تتدخل في تحديد بعض المسارات في البنيات الثقافية في المجتمع. ويبدو واقعيا ان توزيع الموارد والقيم كثيرا ما يقترن بتوزيع السلطة في المجتمع. ان الاشكال التي تتجسد بها السلطة ينبغي ان تكون عاملا في الدراسات الخاصة بالفكر العربي (ويدخل الفكر المتوحش في هذا الاطار) ولاشك ان تقديمات الفارابي في الفلسفة السياسية وابن خلدون في السلطة العصبية (32) تساهم في بلورة هذا التوجه.

يبقى وانه لابد من ابداء ملاحظات عابرة معتبرة غير جزمية او حتمية حول الاداة الثقافية الاكثر امتيازا وتمايزا في التاريخ الاجتماعي والفكري لدى العرب كأمة وحضارة : الظاهرة القرآنية. ان التقرب من هذه الظاهرة يتطلب التريث والتحفظ والعناية والحذر «ويعلم ولايعلمون» «وما أوتيتم من العلم الا قليلا» ذلك ان الظاهرة القرآنية ليست نصا في التاريخ او الاقتصاد او الاجتماع او الفلك، الخ (وبالتالي يمكن ان تدرس بالادوات والمناهج التي تدرس بها النصوص الاخرى) انما هو دعوة اساسا او حيت باستخدام اللسان العربي المبين : «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة». محل مايمكن وما ينبغي ان يكون محجل دراسات من النوع الاكاديمي هي النصوص التفسيرية التأويلية التي صاغها الفاعل الانساني والتي تحمل في طياتها مقومات النصوص الاخرى. لقد وقعت هناك بعض المحاولات التي تعتبر الدعوة نصا قابلا ان يستوعب بعض التبيانات البنيوية (33)، ولكن لا يبدو ان هذه الاخيرة اخذت بعين الاعتبار التباين بين دعوة تتعالى عن متغيرات الزمان والمكان وبين نص يحتوي ويحوي رغما عنه مؤثرات واثار البيئة الاجتماعية والتاريخ. ايضا، فانه يظهر ان هذه المحاولات لاتقدر بكفاية ان عامل الحداثة والتجديد يتأتى من داخل المعادلة الدينية الفكرية العربية وليس من خارجها وأنه لاينبغي استثمار الثقة الكاملة في عدد من المفاهيم الغربية ذلك ان هذه الاخيرة تتقيد بأطر اجتماعية حضارية خاصة. ويظهر، وليس على سبيل المقارنة، ان حركة الاصلاح في الغرب انبث داخل المؤسسة الدينية نفسها (لوثر وكالفان) تزامنا مع المتغيرات الاجتماعية والعلمية في المجتمع الاوسع وليس عن طريق تحاليل منهجية خارجية عن خاصية وخصوصية المؤسسة الدينية نفسها.

ان عددا من الملكيات والمباديء البنيوية تطرح حججا وتساؤلات عندما يتعدى طرحها اطار وواقع المجتمع في الغرب. هل يمكن القول ان بعض المجتمعات تلجأ الى الرمزية (الذي قد يجسد لاشعورا من نوع خاص) اكثر من غيرها بفعل الدوافع كالقهر الاجتماعي ؟ ينطبق هذا على بعض حقبات تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ذلك انه يمكن القول ان المجتمع العربي منذ انهيار الدولة العباسية لم يمتلك ادوات انتاج ثقافته ومؤسساته وكان اللجوء الى الرمزية اداة للحفاظ عن مكوناته من جهة والتعبير عن مظاهرا لاستلاب والاغتراب من جهة اخرى. هل يمكن الافتراض بأن بعض الدلائل الثقافية في العديد من المجتمعات كمثل

المجتمع العربي تطورت الى اللاشيئية كما هو الحال في الغرب؟ يبدو ان المجتمعات كالمجتمع العربي مازال مرتبطا ومؤسسات تحمل معاني ودلالات انسانية اصيلة تاريخيا (وان كان ذلك يتجه نحو الانقراض) وذلك يعود لدوافع عدة منها درجة التطور التقني في المجتمع وعامل ان ادوات السيطرة والدعاية غير منتشرة ومتحكمة في زمام التفكير والعمل الانساني كما هو الحال في الغرب. هل يمكن القول ان التعامل مع الانسان كموضوع الدراسة يقترب من النهاية عندما يتعلق الامر بمجتمعات مازال الانسان فيها مشروعا حضاريا؟ ويبدو ان هذه المسألة لم تكن مطروحة عندما كان لانسان الاوروبي مشروعا ابتداء من القرن 17، وانما عندما تجاوز هذا الانسان «اطار المشروع». ثم كيف تتم عملية نسب محتويات ثقافية تاريخية الى بنيات تحتية في مجتمعات لم ترسم فيها معالم هذه البنيات ولم تنبثق فيها شرائح اجتماعية متميزة قارة كمثل ما حدث في الغرب. تلك تساؤلات تتطلب كتابات ومساهمات في هذا المجال.

(*) يستعمل «لفي ستروس» هذا التعبير مجازيا اذ هو يرى ان هذه المجتمعات لا تمثل مراحل اولى من التطور الانساني، بل كيانات معقدة في انظمتها الاجتماعية والفكرية كتعقد المجتمعات المعاصرة.

---

(30) T.R. Young, on,, a socio-political interpretation of the Wizard of OZ,, conference given at T.W.U, Denton, Texas, Spring, 1984.

() تتواجد هناك بعض التنوعات الخاصة بتاريخ الفكر الغربي كالتصنيف الذي أورده كونت (الميتافيزقية/الدينية/العلمية)، وهي لاتتعارض مع السياق العام المذكور.

(31) انظر مثلا : Foucault, Michel, Histoire de la Folie a l'Age Classique, Paris, Eitions Gallimard, 1961.

(32) عن معالم السلطة العصبية طالع.
د. المختار الهراس، «القبيلة والدورة العصبية : قراءة في التحليل الخلدوني للمجتمع القروي المغاربي». المستقبل العربي، العدد 98، (4، 1987) ص. 66/47.

(33) محمد اركون، الفكر العربي، ترجمة د. عادل العلوا (الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية الطبعة الثانية، 1982).

---

(34) Charles C. lemert, **Sociology and the Twilight of Man : Homocentrism and Discourse in Sociological Theory,** Southern Illinois Univ. Press, Carbondale, Illinois, 1979, (firdt published, 1973),